مَقَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ فِي أُصُولِ الضَّلَالِ العَقَدِيِّ عَبْرَ التَّارِيخِ

كـــــتـــــبـــــه:

عبد الصمد بن أحمد السُّلَمي

مَعرفةُ المرضِ العقديِّ وسبَبُه يُعينُ عَلى علاجِهِ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عند كلامه على وقوع الخلط بين معنى الاستغاثة والتوسل من لدن بعض المنتسبين للعلم : « وأريد أن أعرف من أين دخل اللبس على هؤلاء الجهال؟ فإن معرفة المرض وسببه يعين على مداواته وعلاجه، ومن لم يعرف أسباب المقالات – وإن كانت باطلة – لم يتمكن من مداواة أصحابها وإزالة شبهاتهم. » الاستغاثة في الرد على البكري (ص 115).

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ لهُ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبدهُ ورسوله

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون }.

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا }.

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما }.

أما بعدُ : فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم –، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعدُ :

فهذه مقدمة في أصول الضلال عبر التاريخ، ومنطلقنا في هذا هو بيان الطرق المخالفة للصراط المستقيم التي ندعوا الله سبحانه في صلاتنا دائما أن يجنبنا إياها: { غير المغضوب عليهم ولا الضالين }، وهي التي نزّه الله نبيه صلى الله عليه وسلم من الوقوع فيها بقوله تعالى: { ما ضلّ صاحبكم وما غوى }؛ فأقول – وبالله التوفيق –:

ذَهابُ الدِّين يكونُ بالزَّنْدقةِ

قال الإمام مَنصورُ بن المعتمر السُّلَمي الكوفي – رحمه الله – : « بعثَ الله آدمَ – عليه السلام – بالشِّريعة، فكانَ الناس على شريعة آدمَ حتَّى ظهرتِ الزَّندقةِ، فذهبت شريعة آدمَ. ثمَّ بعث الله نوحا – عليه السلام – بالشَّريعة، فكان الناس على شريعة نوحٍ، فما أذهبهَا إلا الزندقة. ثمَّ بعثَ الله إبراهيم – عليه السلام –، فكان الناس على شَريعة إبراهيمَ حتى ظهرت الزندقة، فذهبت شريعة إبراهيمَ. ثم بعث الله مُوسى – عليه السلام –، فكان الناس على شريعة موسى حتى ظهرتِ الزَّندقةُ، فذهبت شريعةُ موسى. ثم بعث الله عيسى – عليه السلام –، فكانَ الناس على شريعة عيسى حتى ظهرت الزندقةُ، فذهبت شريعةُ عيسى. ثمَّ بعثَ الله محمدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – بالشّريعة، فلا يُخافُ على ذهاب هذا الدِّين إلا بالزَّندقة!! ».الإبانة الصغرى لابن بطة العكبري (ص/ 33) .

الفلسفة نوعان لا ثالث لهما

– فلسفة علمية مشّائية تقوم على ترتيب المقدمات والنتائج العقلية؛ فالنتائج عندهم لا بدّ أن تكون لها مقدمات معقولة ومحسوسة، ولذلك تتخذ من فكرة التسلسل في العلل منهجا دائما لها، وهذه التي يخوض المتكلمون في الميتافيزيقيا فيها.

– فلسفة عملية غنوصية تقوم على السلوك الروحي لتفيض المعارف بعدها؛ والنتائج

عندهم لا يشترط فيها الترتيب العقلي مع مقدماتها، ولذلك تظهر الخرافات المخالفة للعقل عندهم، وهذه التي يخوض فيها الروحانيون الغنوصيون.

ولذلك قال سقراط: « الفسلفة: البحث بِوَسَاطة النَّظر العقلي عن حقائقِ الأشياء، وعن الخير والفضيلة » الفلسفة الإغريقية محمد غلاب (1/ 163) بواسطة الاتجاهات الفلسفية اليونانية لأحمد بن سعود الغامدي (ص/ 28).

فالمشائون هم الذين يبحثون عن حقائق الأشياء؛ وهي البحث عن حقيقة وجود الموجودات ومن أوجدها، وهذا عن طريق دليل الحدوث الذي نهايته التعطيل التام واعتقاد قدم العالم، والغنوصيون هم الذين يبحثون عن الخير والفضيلة، وهو ملء الفراغ الروحي وتلبية الرغبات العاطفية التي تجعلك عندهم خيرا فاضلا، وهذا عن طريق التعبد لإسقاط التعبد عن طريق عبادة الحب، ونهايتها وحدة الوجود وتصحيح جميع الأديان.

ودين الإسلام يقوم على التصديق بالغيب خلافا للمشائية، والعمل بالشرع خلافا للغنوصية؛ لأن الإسلام أخبار وأحكام، وأخباره صدق وأحكامه عدل؛ قال تعالى: { وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا }.

قال الإمام ابن كثير الدمشقي: « صدقا في الأخبار، وعدلا في الطلب، فكلّ ما أخبر به فحقٌّ لا مرية فيه ولا شكٌّ، وكلّ ما أمر به فهو الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل؛ فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة » تفسير القرآن العظيم (2/ 240).

والإنسان يتنازعه نحو الانقياد للحق نازعان:

- عقلي، وهذا مخالفته في التكذيب بالغيب.
- روحي، وهذا مخالفته في التهرب من الحكم.

والشيطان منذ أن خلق الله البشر وابتلاه به؛ يركز على هاتين الطريقين.

وعلاج الانحرافين يقوم على التصديق بالغيب ومداومة العبادة حتى الممات.

وسيأتي في النقل عن أهل العلم تفصيل لهذا التأصيل.

وحسبك في معرفة شر الفلسفة وأنها أساس الزندقة ما قاله الإمام أبو عمرو بن الصلاح: « الفلسفة أسّ السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالبراهين، ومن تلبس بها قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأظلم قلبه عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم....؟» السير للذهبي (13 /285).

أصول الضلال عبر التاريخ

من أمتع التأصيل العلمي ما قاله الإمام ابن القيم – رحمه الله –: « أن هؤلاء المعرضين عن الأدلة السمعية المعارضين لها إذا فعلوا ذلك لم يبق لهم إلا طريقان :

– إما طريق النظار وهي الأدلة القياسية العقلية .

–وإما طريق الكشف وما يدرك بالرياضة وصفاء الباطن .

وكلٌّ من هاتين الطريقتين باطلةٌ أضعاف حقّها ، وفيها من التناقض والاضطراب والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد .

– ولهذا نجد غاية من سلك الطريق الأولى الحيرة والشك .

– وغاية من سلك الطريق الثانية الشطح .

– فغاية أولئك عدم التصديق بالحق .

– وغاية هؤلاء التصديق بالباطل .

– وحال أولئك تشبه حال المغضوب عليهم .

– وحال هؤلاء تشبه حال الضالين .

– ونهاية أولئك التعطيل والنفي .

– ونهاية هؤلاء الإلحاد والقول بالوحدة والاتحاد ..». الصواعق المرسلة (3/ 1166) .

وفي هذا المعنى ما قاله حاجي خليفة الشهير بكاتب جلبي التركي: « والطريق إلى هذه المعرفة من وجهين:

–أحدهما: طريقة أهل النظر والاستدلال.

–وثانيهما: طريقة أهل الرياضة والمجاهدات.

–والسالكون للطريقة الأولى إن التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلمون، وإلا فهم الحكماء المشاؤون.

-والسالكون إلى الطريقة الثانية إن وافقوا في رياضتهم أحكام الشرع فهم الصوفية، وإلا فهم الحكماء الإشراقيون.

فلكلّ طريقة طائفتان ». كشف الظنون (1/ 677-678).

ومن أمتعه أيضا - وهو مليء بالفوائد - كلام الإمام السلفي ابن أبي العز الحنفي : « قال طائفة من السلف : من انحرف من العلماء؛ ففيه شبهٌ من اليهود، ومن انحرف من العبّاد؛ ففيه شبهٌ من النصارى؛ فلهذا تجد :

- أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيهم شبه من اليهود، حتى إن علماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة، ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويُرجّحونهم على النصارى.

- وأكثر المنحرفين من العبَّاد من المتصوّفة ونحوهم فيهم شَبهٌ من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرّهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك.

- وشيوخُ هؤلاء يذمّون الكلامَ وأهله.

- وشيوخُ أولئك يَعيبُون طريقةَ هؤلاء، ويُصنّفون في ذمّ السّماعِ والوجد وكثيرٍ من الزّهد والعبادة التي أحْدَثَها هؤلاء ». شرح الطحاوية (ص/ 525- 526).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: « وجماع ذلك أنّ كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم؛ فهم يعلمون الحقّ ولا يتّبعونه قولا أو عملا، أو لا قولا ولا عملا.

وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم؛ فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون ». اقتضاء الصراط المستقيم (ص/ 15).

وقال أيضا: « وكانوا يقولون: [احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإنّ

فتنتهما فتنة لكلّ مفتون]؛ فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحقّ ولا يتّبعونه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

ووصف بعضهم أحمد بن حنبل؛ فقال: [رحمه الله، عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها].

وقد وصف الله أئمة المتقين؛ فقال: { وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون }؛ فبالصبر: تترك الشهوات، وباليقين: تدفع الشبهات.

ومنه قوله في سورة العصر: { وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر }، وقوله: { واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار ». اقتضاء الصراط المستقيم (ص/ 35).

لكن كثيرا من البشر يجمع بين الضلالتين؛ لأنَّ جميع البشر فيهم نازعان هما : العقل والروح، والوحي نوعان : خبر وأمر؛ فإذا اتبعت العقل دون الخبر من الوحي كان هذا الضلال من باب الظن، وإذا اتبعت الروح دون الأمر من الوحي كان هذا الضلال من باب الهوى؛ وفي هذا يقول الإمام ابن القيم: « إن الكلام في الدين نوعان:

- أمر.

-وخبر.

- فما عارض الأمر كان من باب الهوى الذي يأمر به الشيطان والنفس.

- وما عارض الخبر كان من باب الظن الذي هو أكذب الحديث.

وهؤلاء لا تجدهم إلا وقد جمعوا بين الأمرين؛ فهم في الإرادات تابعون لأهوائهم، وفي الاعتقادات تابعون لظنونهم، قال تعالى : { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد

جاءهم من ربهم الهدى } » الصواعق المرسلة (4/ 1210).

ويزيد هذا توضيحا قول شيخ الإسلام ابن تيمية فيمن من كان صوفيا متكلما جامعا للضلالتين في اعتقاده في وجود الله سبحانه: « وكثير منهم يجمع بين القولين:

– ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين؛ فيقول : لا هو داخل العالم ولا خارجه.

– وفي حال تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان، ولا يخلو منه شيء حتى يصرحون بالحلول في كل موجود – من البهائم وغيرها – بل الاتحاد بكل شيء، بل يقولون بالوحدة التي معناها أنه عين الموجودات.

وسبب ذلك: أن الدعاء والعبادة والقصد والإرادة والتوجه يطلب موجودا، بخلاف النظر والبحث والكلام؛ فإن العلم والكلام والبحث والقياس والنظر يتعلق بالموجود والمعدوم، فإذا لم يكن القلب في عبادة وتوجه ودعاء سَهُل عليه النفي والسلب، وأعرَضَ عن الإثبات، بخلاف ما إذا كان في حال الدعاء والعبادة فإنه يطلب موجودا يقصده، ويسأله ويعبده، والسلب لا يقتضي إلا النفي والعدم؛ فلا يُنفي في السلب ما يكون مقصودا معبودا » مجموع الفتاوى (5/ 272 – 273).

والحق المبين هو ما جاء به المرسلون – عليهم السلام –، وهو لا يتأتى للإنسان إلا من معرفة الحق والمحبة له؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « منشأ الباطل: من نقص العلم، أو سوء القصد؛ كما قال تعالى : { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس }، ومنشأ الحق: من معرفة الحق والمحبة له، والله هو الحق المبين، ومحبته أصل كل عبادة » درء التعارض (7/ 174).

أمثلة تطبيقية لأصول الزندقة في الطوائف الضالة المنتسبة للإسلام

طائفة العقلانيين :

قال الإمام أحمد : « أهل الكلام زنادقة » تلبيس إبليس (ص/ 83).

وقال الإمام الشافعي عن المتكلمين : « إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة » شرح أصول الاعتقاد للالكائي (2/ 207) .

وقال الإمام أبو يوسف : « من طلب العلم بالكلام تزندق » شرح أصول الاعتقاد للالكائي (1/ 147) .

وقال الإمام البربهاري: « واعلم – رحمك الله – أنّه ما كانت زندقةٌ قطُّ، ولا كفرٌ، ولا شكٌّ، ولا بِدعةٌ، ولا ضَلالةٌ، ولا حيرةٌ في الدّينِ؛ إلا من الكلام، وأصحاب الكلام، والجدل والمراء والخصومة » شرح السنة (ص/ 82).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « اشتهر بين المسلمين أن المنطق يجرُّ إلى الزندقة » درء التعارض (1/ 218) .

وقال أيضا : « بل إن سمعت أو رأيت معرضا عن الكتاب والسنة مقبلا على مقالاتهم [أي : المتكلمين] إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده » الأعلام العلية للبزار (ص/ 34).

وألف الإمام أحمد كتابا عن الجهمية بعنوان : " الرد على الجهمية والزنادقة " .

طائفة الوجدانيين :

قال بعض السلف : « من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق » العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص/ 112).

يقول ابن القيم : « وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم وسيره على جادة الذوق والوجد ذاهبة به الطريق كل مذهب، فهذه فتنة والفتنة به شديدة » مدارج السالكين (1/ 157) .

وقال ابن عقيل الحنبلي للصوفية : « أَنتم زنادقةٌ في زيّ زُهّادٍ، يعتقدون أن الله يُعشَق ويُهام فيه ..» تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص/ 302).

وقال الإمام الشافعي : « خلَّفت ببغدادَ شيئاً أحدثته الزنادقة يُسمّونه : " التغبير "، يصدون به الناس عن القرآن » مجموع الفتاوى (11/ 569).

والتغبير : هو الغناء الصوفي، وينظر " النهي عن الرقص والسماع " لأبي محمد ابن بدران الدشتي الحنفي (2/ 555 – 556).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: « وعند جماهير المشايخ الصوفية وأهل العلم، أن الحلاج لم يكن من المشايخ الصالحين، بل كان زنديقا » مجموع الفتاوى (8/ 318).

وقال الحافظ الذهبي عن قصيدة ابن الفارض الصوفي التائية الشهيرة : « فإن لم يكن

في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده؛ فما في العالم زندقةٌ ولا ضلال » سير أعلام النبلاء (13/ 196) .

وألف العلامة المحدّث المجتهدُ محمد بن صفي الدين البخاري الحنفي كتابا بعنوان " الصاعقة المحرقةُ على المتصوفة الرقصة المتزندقة " .

ولما وَصَفَ أئمة الإسلام ابنَ عربي الحاتمي الطائي شيخ وحدة الوجود بالزنديق كتب أحد المتصوفة كتابا بعنوان " تنزيه الصِّدِّيق عن وصف الزِّنديق "، وكذبَ؛ بل هو زنديق ملحد – قبَّحه الله –.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عبد الصمد بن أحمد السلمي

الأربعاء 23 رجب 1439 هـ